قال رحمه الله تعالى:

[فصلٌ (غزوة ذي قرد) ؛ ثم أغار بعد قدومه المدينة بليالٍ عُيينه بن حصن في بني عبد الله بن غطفان على لقاح النبي ﷺ التي بالغابة فاستاقها وقتل راعيها ، وهو رجل من غفار ، وأخذوا امرأته . فكان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي رضي الله عنه ، ثم انبعث في طلبهم ماشياً وكان لا يُسبق ، فجعل يرميهم بالنبل ويقول : " أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع " يعني اللئام ، واسترجع عامة ما كان في أيديهم. ولما وقع الصريخ في المدينة خرج رسول الله ﷺ في جماعة من الفرسان ، فلحقوا سلمة بن الأكوع واسترجعوا اللقاح ، وبلغ النبي ﷺ ماءً يقال له ذو قَرَد ، فنحر لقحة مما استرجع ، وأقام هناك يوماً وليلة ثم رجع إلى المدينة . وقُتل في هذه الغزوة الأخرم وهو محرز بن نضلة رضي الله عنه ، قتله عبد الرحمن بن عيينة وتحول على فرسه ، فحمل على عبد الرحمن أبو قتادة فقتله واسترجع الفرس وكانت لمحمود بن مسلمة ، وأقبلت المرأة المأسورة على ناقة لرسول الله ﷺ وقد نذرت : إن الله نجاها عليها لتنحرنها ، فقال رسول الله ﷺ : " بئس ما جزتها ؛ لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ، ولا في معصية" وأخذ ناقته . وقد روى مسلم في صحيحه عن سلمة بن الأكوع في هذه القصة قال : فرجعنا إلى المدينة ، فلم نلبث إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر ، ولعل هذا هو الصحيح ، والله تعالى أعلم] .

****

هذا فصل عقده الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في ذكر غزوة ذي قَرَد ، وذو قرد : جبل أسود يقع عن المدينة النبوية من الناحية الشمالية الشرقية مسافة مرحلة واحدة أي ما يقارب من الأربعين كيلو متر تقريباً ، وسميت هذه الغزوة غزوة ذي قرد نسبة إلى هذا الجبل ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام اتجه إلى ذلكم المكان لتخليص الإبل من هذا العدو الذي استاقها وقتل الراعي وأخذ امرأته .

قال الإمام بن كثير رحمه الله تعالى : ((**ثم أغار بعد قدومه المدينة** – أي من غزوة بني لحيان – **بليال عيينه ابن حصن في بني عبد الله ابن غطفان على لقاح النبي ﷺ التي بالغابة فاستاقها وقتل راعيها وهو رجل من غفار وأخذوا امرأته**)) ؛ الغابة موقع معروف كثير الأشجار ، وهو يقع في الشمال الغربي من المدينة وكانت فيه إبل الصدقة ، واللقاح : جمع لِقحة ويقال لقحة بفتح اللام وكسرها ، والمراد بها الإبل ذات الحليب الغزير . فجاء عيينة ابن حصن وأخذ لقاح النبي ﷺ وقتل الراعي وأيضاً أخذ المرأة في نفر معه .

قال : ((**فكان أول من أنذر بهم سلمة ابن عمرو ابن الأكوع الأسلمي** رضي الله عنه)) ؛ وهذا الصحابي الجليل رضي الله عنه كان من الشجعان ، وكان أيضاً في الوقت نفسه عدَّاء لا يُسبق ، حتى أنه ذُكِر في ترجمته أنه من سرعة سبقه في الجري يسبق الخيل ، وهذه القصة التي حصلت تدل على ذلك ، لأنه لحق في ساقة هؤلاء وهم خيَّالة وأدركهم وكان يرميهم ، وإذا جاؤوا إليه وأقبلوا عليه فرَّ فلا يلحقونه وهم على الخيل ، ثم إذا عدلوا عنه لحقهم ، وكان وحده وكانوا على الخيل وكانوا جماعة لكنه أدركهم بالنبل واسترجع ما معهم . وقد راجعتُ ترجمته رضي الله عنه فظهر لي من بعض المراجعات أن عمره في هذا الوقت يقارب العشرين سنة ، فكان في هذه الشجاعة وهذه القوة وأيضاً في هذه السرعة في الجري رضي الله عنه وأرضاه .

قال : ((**ثم انبعث في طلبهم ماشياً**)) ؛ يعني كان على قدميه لم يكن راكبا على خيل . وليس المراد بماشياً أنه يمشي المشي الخفيف المعتاد وإنّما سريعاً .

((**وكان لا يُسبق**)) ؛ يعني من سرعته في الجري والعدو .

((**فجعل يرميهم بالنبل ويقول : أنا ابن الأكوع اليوم يوم الرُّضَّع**)) ؛ والمراد بالرضع : اللئام ، وأن هؤلاء اللئام الذين قتلوا هذا الراعي واقتادوا الإبل – وهذا فعل اللئام – هذا اليوم

يومهم ، يعني أنه وراءهم بنبله للقضاء عليهم وإلحاق النكال بهم . في مصادر التخريج عندما يرمي النبل يقول : "خذها أنا بن الأكوع " ويرمي النبل عليهم .

((**واسترجع عامة ما كان في أيديهم**)) ؛ كانوا في فرارهم منه واتقاءهم نبله يتخفَّفون حتى من متاعهم الخاص بهم للفرار منه والسلامة من نبله رضي الله عنه وأرضاه .

قال : ((**ولما وقع الصريخ في المدينة**)) ؛ لأنه كان ﷺ قبل أن ينطلق صرخ بالناس معلناً هذا الأمر ثم انطلق في ساقة هؤلاء .

((**خرج رسول الله ﷺ في جماعة من الفرسان فلحقوا سلمة ابن الأكوع ﷺ واسترجعوا اللقاح ، وبلغ النبي ﷺ ماءً يقال له ذو قرد ، فنحروا لقحة مما استُرجع**)) ؛ نحروها ليأكلوها لحماً طعاماً .

((**وأقام هناك** – يعني في ذي قرد – **يوماً وليلة ثم رجع ﷺ إلى المدينة**)) .

قال : ((**وقُتل في هذه الغزوة الأخرم**)) ؛ وهذا لقب لصحابي جليل ﷺ .

قال : اسمه ((**محرز ابن نضلة ﷺ ، قتله عبد الرحمن ابن عيينة**)) ؛ لأنه انطلق فرسان من المدينة وكان محرز ابن نضلة ﷺ هو الفارس الأول الذي لحق القوم ، فلقيه سلمة ابن الأكوع ﷺ واستوقفه ونصحه أن لا يذهب ، ذكر له من حال القوم وقال له تنتظر حتى يأتي بقية الخيَّالة ، فقال : تريد أن تحول بيني وبين الشهادة في سبيل الله؟! وانطلق بخيله حتى جاء أمامهم وقال : على رسلكم فخيل النبي ﷺ وراءكم ، فتقدم إليه أحدهم وقتله ، فمات شهيداً رضي الله عنه وأرضاه .

((**وتحوَّل على فرسه**)) ؛ يعني ركب على فرسه لأن الفرس الذي جاء عليه فرساً عدَّاء وسريع الجري فتحول عليه.

((**فحمل على عبد الرحمن أبو قتادة الأنصاري ﷺ فقتله**)) ؛ وأبو قتادة كان من جملة الخيَّالة من أصحاب النبي ﷺ الذين انطلقوا في ساقة القوم .

((**واسترجع الفرس وكانت لمحمود بن مسلمة**)) ؛ ففي جانب الخيالة برز هذا الصحابي الجليل أبو قتادة الأنصاري ﷺ ، وفي جانب الرجّالة الذين على أرجلهم برز هذا الصحابي الجليل سلمة ابن الأكوع ﷺ . ولهذا صح عن النبي ﷺ أنه قال : ((خير فرساننا أبو قتادة

، وخير رجَّالتنا سلمة)) فأثنى على سلمة ابن الأكوع ﷺ هذا الثناء العاطر ، وأيضاً أثنى على أبي قتادة ﷺ هذا الثناء العاطر .

قال : ((**وأقبلت المرأة المأسورة على ناقة لرسول الله ﷺ وقد نذرت : إن اللهُ نجَّاها عليها لتنحرنها**)) ؛ نذرت إن نجَّاها الله ﷻ على الناقة لتنحرنها ، وهي لا تملكها ، ليست لها !! فهذا نذر فيما لا يملكه الإنسان ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث : ((لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ، ولا نذر في معصية)) فكل منهما لا يجوز ؛ لا يجوز للإنسان أن ينذر في شيء لا يملكه ، ولا أن ينذر أيضاً في معصية لله ﷻ ، وكان نذرها رضي الله عنها وأرضاها من النوع الأول وهو النذر فيما لا يملك الإنسان .

((**فقال عليه الصلاة والسلام : بئس ما جزتها**)) ؛ جزاء أنها تنجو عليها أن تنحرها !!

ثم قال عليه الصلاة والسلام مبيناً للحكم : ((**لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ، ولا في معصية**)) .

((**وأخذ** – صلوات الله وسلامه عليه – **ناقته**)) ؛ أي التي نذرت هذه المرأة أن تنحرها إن نجت عليها . والنذر في جملته نهى النبي ﷺ عنه وقال : ((إِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ)) .

قال رحمه الله : ((**وقد روى مسلم في صحيحه عن سلمة بن الأكوع في هذه القصة ، قال : فرجعنا إلى المدينة ، فلم نلبث إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر ، ولعل هذا هو الصحيح والله تعالى أعلم**)) ؛ أي أن غزوة خيبر كانت عقب غزوة بني لحيان . والحديث في صحيح مسلم ساقه من حديث سلمة بن الأكوع مطوَّلاً ويمكن لطالب العلم أن يراجع الحديث مطولاً في سياق نافعٍ ماتعٍ مفيد في قصة سلمة ﷺ عندما انطلق وراء القوم ، والمصنف رحمه الله اجتزأ أو اختصر بذكر أشياء يسيرة من هذا الحديث .

قال رحمه الله تعالى :

[**فصلٌ (غزوة بني المصطلق أو المريسيع) ؛ ثم غزا ﷺ بني المصطلق من خزاعة في شعبان من السنة السادسة ، وقيل : كانت في شعبان سنة خمس ، والأول أصح وهو قول ابن إسحاق وغيره . واستعمل على المدينة أبا ذر ، وقيل : نميلة ابن عبد الله الليثي ، فأغار عليهم وهم غارُّون على ماء لهم يقال له المريسيع ، وهو من ناحية قُديد إلى**

الساحل ، فقَتل من قتل منهم وسبى النساء والذرية ، وكان شعار المسلمين يومئذ : أمِت أمت . وكان من السبي جويرية بنت الحارث بن أبي ضِرار ملك بني المصطلق ، وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبها، فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها فصارت أم المؤمنين، فأعتق المسلمون بسبب ذلك مائة بيت من بني المصطلق قد أسلموا . وفي مرجعه ﷺ قال الخبيث عبد الله بن أبيّ بن سلول : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، يعرِّض برسول الله ﷺ ، فبلَّغها زيد بن أرقم رسول الله ﷺ، وجاء عبد الله بن أبيّ يعتذر ويحلف ما قال ، فسكت عنه رسول الله ﷺ حتى أنزل الله ﷻ تصديق زيد بن أرقم في سورة المنافقين] .

****

ثم عقد الإمام بن كثير رحمه الله تعالى هذا الفصل في ذكر « غزوة بني المصطلق » ، وسميت بذلك : لأن بني المصطلق هم المعنيُّون بهذه الغزوة والمقصودون بها . وتسمى أيضا « غزوة المريسيع » ، وسيأتي عند الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى سبب تسميتها بذلك .

قال رحمه الله : ((**ثم غزا ﷺ بني المصطلق من خزاعة**)) ؛ والمصطلق لقب لرجل اسمه جَذِيمة ابن سعد ابن عمر ابن ربيعة ابن حارثة ، بطنٌ من خزاعة .

وهذه الغزوة كان لها عدة أسباب من جملتها : أن بني المصطلق من جملة الذين تحالفوا مع قريش وتكالبوا معهم لمقاتلة المسلمين في غزوة أحد وبلغ النبي ﷺ عنهم ذلك . ومن ضمنها أيضاً أنَّهم في طريق المسلمين المؤدي إلى مكة وهم في تلك المنطقة صاروا أعواناً وأنصاراً لقريش ضد النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه وضد صحابته الكرام ، ومن مقاصد النبي ﷺ تخليص مكة من أيدي هؤلاء الكفار . فهذه الأسباب مجتمعة جعلت النبي ﷺ يغزوا هؤلاء القوم .

وذكر الإمام بن كثير رحمه الله تعالى خلافاً في السنة التي وقعت فيها الغزوة فقال : ((**ثم غزا ﷺ بني المصطلق من خزاعة في شعبان من السنة السادسة ، وقيل : كانت في شعبان سنة خمس ، والأول أصح وهو قول ابن إسحاق وغيره**)) ؛ فذكر أنها وقعت في شعبان من السنة السادسة ، وذكر القول الآخر أنها كانت في شعبان من السنة الخامسة ، ورجَّح رحمه الله تعالى القول الأول وهو أنها في السنة السادسة وقال هو قول ابن إسحاق وغيره .

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن الراجح من هذين القولين الثاني وليس الأول ، وأن هذه الغزوة إنّما كانت في شعبان من السنة الخامسة ، وهذا اختاره جماعة من المؤرخين المتقدمين والمتأخرين منهم موسى ابن عقبة والواقدي ، وابن سعد ، وابن قتيبة ، والذهبي ، وابن القيم ، وغيرهم من أهل العلم . وهناك شواهد عديدة تدل دلالة واضحة على أن هذه الغزوة كانت في السنة الخامسة من الهجرة أي أنّها كانت قبل غزوة الأحزاب ، لأن غزوة الأحزاب كما مر معنا كانت في شوال في السنة الخامسة ، وغزوة بني المصطلق كانت في شعبان من السنة الخامسة ، يعني قبل غزوة الأحزاب بشهرين تقريباً ، وسيأتي عند المصنف رحمه الله ذكرٌ للخلاف أيضاً في هذه المسألة والدليل على السنة الخامسة ، وإن كان رحمه الله تعالى لم يقوِّ هذا القول واختار القول الأول وهو أنها في السنة السادسة .

قال : ((**واستعمل على المدينة أبا ذر وقيل نميلة ابن عبد الله الليثي ، فأغار عليهم وهم غارُّون على ماء لهم**)) ؛ معنى غارون : أي غافلون ، أي جاءهم على غفلة وهم على ماء لهم ، وكونه عليه الصلاة والسلام جاءهم وهم غارون هذا يحتمل أن دعوة الإسلام قد بلغتهم قبل إتيانه عليه الصلاة والسلام إليهم ويكون عليه الصلاة والسلام على علم ببلوغها لهم ، أو أنه عليه الصلاة والسلام لما باغتهم دعاهم ﷺ إلى الإسلام فلم يجيبوه فبدأهم ﷺ بالقتال.

قال : ((**ماء لهم في مكان يقال له : المريسيع وهو من ناحية قُديد إلى الساحل**)) ؛ قديد معروف بهذا الاسم إلى وقتنا الحاضر ، وهو شمال خُليص يبعد عنها قرابة الثلاثة عشر كيلو متر تقريباً .

((**فقتل من قتل منهم ، وسبى النساء والذرية**)) ؛ أي قتل عدداً من رجال هؤلاء ومقاتلتهم ، وسبى النساء والذرية .

((**وكان شعار المسلمين يومئذ : أمِتْ أمِت**)) ؛ الشعار : هو العلامة الصوتية التي يميز بها صف المسلمين عن غيرهم .

((**فكان من السبي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ملك بني المصطلق ، وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبها**)) ؛ أي على مبلغ معين تدفعه وإذا استكملت دفعه له يعتقها .

((**فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها**)) ؛ لأنها جاءت إليه وعرَّفته بنفسها وأنها ابنة سيد بني المصطلق وأنها في هذه المصيبة وأن من كانت في نصيبه كاتبها ، فطلبت من النبي عليه الصلاة والسلام أن يعينها على مكاتبتها ، فقال لها عليه الصلاة والسلام : هل لكِ فيما هو خير لكِ من ذلك ؟ أُوفِّي عنك وأتزوجك ، فقبِلت ذلك رضي الله عنها وأرضاها وتزوجها صلوات الله وسلامه عليه ((**فصارت رضي الله عنها أمًّا للمؤمنين**))

((**فأعتق المسلمون بسبب ذلك مائة بيت من بني المصطلق قد أسلموا**)) ؛ لما أعتقها عليه الصلاة والسلام وتزوجها وصارت أمًّا للمؤمنين ترتب على ذلك أن الصحابة ﷺ بسبب ذلك اعتقوا مئة بيت من بني المصطلق ؛ اسكثروا واستعظموا أن يكونوا في أيديهم أرقاء وإماء وهم أصهار النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا عائشة رضي الله عنها وأرضاها قالت : ((لا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها)) لأن بركتها على قومها كانت عظيمة ، ومن بركتها على قومها أن والدها الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق تأثر بهذا الحدَث وبالعتق الذي حصل فجاء ومنَّ الله ﷻ عليه بالإسلام ، وأيضاً أسلم على إثر إسلامه عدد من بني المصطلق ، وأُعتق بسببها عدد مئة بيت من بني المصطلق .

قال : ((**وفي مرجعه ﷺ قال الخبيث عبد الله بن أبيّ ابن سلول** – رأس المنافقين – : **لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز** –أي في المدينة – **منها الأذل يعرِّض برسول الله ﷺ**)) ؛ يقصد بالأعز نفسه ومن كانوا على شاكلته من المنافقين ، ويعرِّض بالرسول ﷺ في قوله الأذل .

فسمعه زيد بن أرقم ﷺ وهو يقول هذه المقالة ((**فبلَّغها رسول الله ﷺ ، وجاء عبد الله ابن أبيّ يعتذر ويحلف ما قال**)) ؛ يعتذر إلى النبي عليه الصلاة والسلام ويحلف أنه ما قال هذه الكلمة .

يقول ابن كثير : ((**فسكت عنه رسول الله ﷺ**)) ؛ الرجل جاء يحلف عند النبي عليه الصلاة والسلام بالله أنه لم يقل هذه الكلمة فقال زيد ﷺ : ((فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَدَّقَهُ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ)).

((**فسكت عنه رسول الله ﷺ حتى أنزل الله ﷻ تصديق زيد ابن أرقم في سورة المنافقين**)) ؛ ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ

وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فنزلت هذه الآية تُصدِّق زيد ابن أرقم ﷺ وتُكذِّب هذا الرأس من رؤوس المنافقين عبد الله ابن أبي .

ولما وصل إلى المدينة جاء في بعض الروايات أن ابنه عبد الله ابن عبد الله ابن أبيّ وهو من خيار المسلمين ومن الصحابة الأخيار وقف على باب المدينة وقال لوالده : والله لا تدخل المدينة حتى تُعلن أنك أنت الأذل ورسول الله ﷺ الأعز ، ولم يُمكنه من دخولها حتى أقر بذلك ، وجاء أيضاً في بعض الروايات أنه استأذن النبي عليه الصلاة والسلام في أن يقتل والده وقال : " ولقد علمت الأنصار ليس في المدينة من هو أبر بوالده مني به " ، فلم يأذن له صلوات الله وسلامه عليه بذلك ، وقد جاء أيضاً في بعض الأحاديث ((حتى لا يُقال إن محمدا ﷺ يقتل أصحابه)) ، لأن هذا في ظاهر الأمر أنه من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وخرج معهم للقتال ، لكن في باطن الأمر هو عدو لدود من ألد الأعداء للنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ولصحابته الكرام وللدين الذي بُعِث به نبينا صلوات الله وسلامه عليه .

قال رحمه الله :

[وكان في هذه الغزوة من الحوادث قصة الإفك الذي افتراه عبد الله بن أبيّ هذا الخبيث وأصحابه ، وذلك أن أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنها كانت قد خرجت مع رسول الله ﷺ في هذه السفرة ، وكانت تُحمل في هودج ، فنزلوا بعض المنازل ثم أرادوا أن يرتحَّلوا أول النهار فذهبت إلى المتبرَّز ، ثم رجعت فإذا هي فاقدةٌ عقداً لأختها أسماء كانت أعارتها إياه ، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي كانت فيه ، فجاء النفر الذين كانوا يرحلون بها فحملوا الهودج حملة رجل واحد وليس فيه أحد ، فرحلوه على البعير ولم يستنكروا خفته لتساعدهم عليه ، ولأن عائشة رضي الله عنها كانت في ذلك الوقت لم تحمل اللحم بل كانت طفلة في سن أربع عشرة سنة . فلما رجعت وقد أصابت العقد لم تر بالمنزل أحداً ، فجلست في المنزل وقالت : إنهم سيفقدونها فيرجعون إليها ، والله غالبٌ على أمره وله الحكمة فيما يشاء . وأخذتها سِنَة من النوم فلم تستيقظ إلا بترجيع صفوان بن المعطل السُّلمي ثم الذكواني ، وكان قد عرَّس في أخريات القوم ، لأنه

كان شديد النوم كما جاء ذلك عنه في رواية أبي داود ، فلما رأى أم المؤمنين قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، زوجة رسول الله ﷺ ؟! ثم أناخ بعيره فقرَّبه إليها فركبته ، ولم يكلمها كلمة واحدة ولم تسمع منه إلا ترجيعه ، ثم سار بها يقودها حتى قدِما ، وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة . فلما رأى ذلك الناس تكلم المنافقون بما الله مجازيهم به ، وجعل عبد الله بن أبيّ الخبيث – مع ما تقدم له من الخزي في هذه الغزوة – يتكلم في ذلك ويستحكيه ويظهره ويُشيعه ويُبديه . وكان الأمر في ذلك كما هو مطول في الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعلقمة بن وقاص الليثي ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، كلهم عن عائشة رضي الله عنها الصديقة بنت الصديق المبرأة من فوق سبع سماوات مما أبنها به أهل الإفك في هذه الغزوة في قوله تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } [النور:١١] الآيات . فلما أنزل الله تعالى ذلك وكان بعد قدومهم من هذه الغزوة بأكثر من شهر جُلد الذين تكلموا في الإفك ، وكان ممن جُلد مسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش . وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك صعد على المنبر فخطب المسلمين واستعذر من عبد الله بن أبيّ وأصحابه فقال : "من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ والله ما علمتُ على أهلي إلا خيراً ، وذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما يدخل على أهلي إلا معي " ، فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال : يا رسول الله أنا أعذرك منه ، فإن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرْتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة فقال كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تستطيع قتله ، ولو كان من رهطك لما أحببت أن يُقتل . فقال أسيد بن الحضير : والله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين فتثاور الحيان حتى كادوا يقتتلون ، فلم يزل رسول الله ﷺ يسكِّنهم حتى سكنوا .. الحديث] .

****

ثم ذكر الإمام بن كثير رحمه الله تعالى أن من الحوادث التي وقعت عقب غزوة بني المصطلق حادثة الإفك الذي رُميت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهي منه براء ، والله ﷻ أنزل في براءتها من هذا الإفك وحياً يتلى في كتابه ﷻ ، ولما نزلت تلك الآيات العظيمات في

براءتها رضي الله عنها وأرضاها تواضعت لربها ﷻ وقالت : ((وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى)) ، ولهذا اتفق أهل العلم على أن من رمى عائشة رضي الله عنها بمّا برأها الله منه في آيات تتلى في كتاب الله ﷻ فهو كافر بالله ومكذِّبٌ بالقرآن العظيم ، لأن هذه آيات ووحيٌ نزلت في كلام الله ﷻ تعلن براءة أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها وأرضاها .

وكان الذي افترى هذا الإفك ((**عبد الله ابن أبيّ هذا الخبيث وأصحابه**)) أي المنافقين ، وكل ذلك حقداً وحسداً وغيظًا على النعمة التي أكرم الله ﷻ بها النبي عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام ، فكانوا ويتحيَّنون بعض الفرص ويثيرون أموراً لينشروا بين الصحابة عداوة وضغائن وأحقاد ونحو ذلك ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام في كل مرة يطفئ ما يوقده هؤلاء المنافقون من جمرة للفتنة ويسكِّن أصحابه ويقطع دابر الشر الذي يقصده هذا المنافق وأتباعه وأعوانه من المنافقين ، ومن ذلك كلام هذا الخبيث الذي مرّ معنا قريباً حيث قال : "لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل " ، قال ذلك لأنه حصلت نوع من المداعبة أو نحو ذلك بين بعض الصحابة أحدهم من المهاجرين ضرب أو لمس الآخر من الأنصار بقدمه – كسَعَه في قدمه – فاستغلَّ مثل هذا ليثير العداوات فقال : " أَوَقَدْ فَعَلُوا! لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل" .

فالشاهد أن هذا المنافق وأعوانه كانوا على إثر هذه الغزوة تقصَّدوا فعلاً إثارة الفوضى وإثارة العداوات وإثارة النعرات الجاهلية وبث التهم الكاذبة الخاطئة ، كل ذلك لزعزعة المسلمين وتفكيك الأخوة والمحبة التي بين أهل الإيمان ، ولكن كلما أوقدوا شراً أطفأه الله ﷻ بمنّه وفضله ، فكان من ذلك هذا الافتراء الآثم الكاذب والإفك المبين الذي افتراه هذا المنافق وجماعته من المنافقين حيث رموا أم المؤمنين عائشة بما هي منه براء .

قال ابن كثير : ((**وذاك أن أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما كانت قد خرجت مع رسول الله ﷺ في هذه السفرة**)) ؛ وكان عليه الصلاة والسلام من هديه إذا أراد أن يخرج في سفرة أقرع بين زوجاته فكانت القرعة في نصيب عائشة فخرجت معه رضي الله عنها وأرضاها .

((**فكانت تُحمل في هودج**)) ؛ الهودج : شيء يوضع فوق سنام الجمل ويكون ساتراً لمن بداخله ، وكانت هذه الطريقة اتُخذت بعد الحجاب ، فتبقى المرأة فوق البعير ، من يمر بالبعير لا يراها لأنها في هودج يسترها عن أعين الرجال .

قال : ((**فنزلوا بعض المنازل ثم أرادوا أن يرتحلوا أول النهار فذهبت إلى المتبرز**)) أي لقضاء حاجتها رضي الله عنها .

((**ثم رجعت فإذا هي فاقدة عقداً لأختها أسماء كانت أعارتها إياه**)) ؛ فازداد حرصها على العقد لأنه مستعار ليس لها ، لأختها .

((**فرجعت تلتمسه في الموضع الذي كانت فيه**)) ؛ رجعت رضي الله عنها وأرضاها في طلبه والبحث عنه .

((**فجاء النفر الذين كانوا يرحلون بها فحملوا الهودج حملة رجل واحد**)) يعني كانوا جماعة فحملوا الهودج حملة رجل واحد ((**وليس فيه أحد**)) يعني لم تكن فيه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها .

((**فرحلوه على البعير ولم يستنكروا خفته لتساعدهم عليه**)) ؛ هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية : ((**لأن عائشة رضي الله عنها كانت في ذلك الوقت لم تحمل اللحم**)) يعني كانت صغيرة ، مثل ما قال ((**بل كانت طفلة في سن أربع عشرة سنة**)) ؛ معنى طفلة : أي صغيرة ، والطفل في كل شيء : الصغير منه ، فكانت رضي الله عنها في ذلك الوقت صغيرة السن ولم تحمل اللحم ، وكانوا مجموعة من الرجال الأقوياء الأشداء وحملوا الهودج حمل رجل واحد فما شعروا أنها لم تكن رضي الله عنها وأرضاها بداخله .

((**فلما رجعت وقد أصابت العقد** – وجدت العقد – **لم تر بالمنزل أحداً**)) ؛ ارتحلوا .

((**فجلست في المنزل وقالت : إنهم سيفقدونها فيرجعون إليها**)) ؛ بقيت في مكانها ، وهذا التصرف في الحقيقة تصرف حكيم ، وكثير ما يتصرف بعض من يُفقد يُسرع في البحث عن رفقاءه فيتجه أحياناً إلى جهات تُبعد به تماماً عن رفقاءه ، فلا يكون في المنزل الذي فقدَهم فيه فيبحثون عنه فيه فيجدونه ، ولا يكون أيضاً في الوقت نفسه في مكان قريب منهم فيجدونه ، فكان هذا التصرف منها تصرفاً حكيما ، بقيت رضي الله عنها وأرضاها في المكان الذي كانوا فيه وقالت : إنهم سيفقدونها ويرجعون إليها .

((**والله غالب على أمره ، وله الحكمة فيما يشاء**)) .

((**وأخذتها سِنة من النوم**)) ؛ نامت في المكان .

((**فلم تستيقظ إلا بترجيع صفوان ابن المعطل السُّلمي ثم الذكواني ، وكان قد عرَّس في أخريات القوم**)) عرَّس : يعني نام في وقت متأخر من الليل في مكان متأخر عن القوم ، فما شعروا به لما تحركوا وهو بقي على نومه ((**وكان شديد النوم** – يعني ثقيل النوم –**كما جاء ذلك عنه في رواية أبي داود**)) .

((**فلما رأى أم المؤمنين قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ، زوجة رسول الله** ﷺ **؟!**)) ؛ وهذه كلمة تُقال عند المصاب ، وهذا مصاب ، وجد أم المؤمنين قد ارتحل عنها القوم وبقيت وحدها في هذا المكان فاسترجع .

((**ثم أناخ بعيره فقربه إليها فركبته ، ولم يكلمها كلمة واحدة ، ولم تسمع منه إلا ترجيعه**)) ؛ يعني إلا قوله "إنا لله وإنا إليه راجعون " .

((**ثم سار بها يقودها حتى قدما وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة**)) ؛ يعني في شدة وقت الظهر .

((**فلما رأى ذلك الناس**)) يعنى رأى الناس أم المؤمنين على البعير قادمة وصفوان يقود البعير .

((**تكلم المنافقون بما الله مجازيهم به**)) أي بدؤوا يثيرون التهمة الكاذبة والإفك المبين على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها .

((**وجعل عبد الله ابن أبيّ الخبيث مع ما تقدم له من الخزي في هذه الغزوة يتكلم في ذلك**)) ؛ قبل قليل كان يقول : "لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل " ومع هذا الخزي أيضاً زاد خزياً آخر وهو اتهام زوجة النبي عليه الصلاة والسلام ، وليس عنده إلا أنهم رأوا زوجة النبي عليه الصلاة والسلام قادمة على البعير وصفوان يقود البعير .

((**يتكلم في ذلك ويستحكيه ويُظهره ويُشيعه ويُبديه**)) ؛ يعني أكثر من نشر ذلك والتحدث عنه ليشيع هذه التهمة على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها .

قال : ((**فكان الأمر في ذلك كما هو مطوَّل في الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعلقمة بن وقاص الليثي ، وعبيد الله بن عبد الله**

بن عتبة ، كلهم عن عائشة رضي الله عنها الصديقة بنت الصديق المبرأة من فوق سبع سماوات مما أبَنَها به – أي اتهمها به – **أهل الإفك في هذه الغزوة في قوله : {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } الآيات** [النور:١١])) ؛ لأنه ترتب عليه خيرات عظيمة وفوائد عديدة وعبَر وعظات ودروس بالغات .

((**فلما أنزل الله تعالى ذلك وكان بعد قدومه من هذه الغزوة بأكثر من شهر جُلد الذين تكلموا في الإفك، وكان ممن جُلد مسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش**)) ؛ أمر عليه الصلاة والسلام بهم فجلدوا لرميهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه التهمة التي أشيعت .

((**وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك صعد على المنبر فخطب المسلمين واستعذر من عبد الله بن أبيّ وأصحابه**)) ؛ أي في هذه الشائعة والتهمة التي يرمون بها زوج النبي ﷺ .

((**فقال : من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي ؟ والله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، وذكروا رجلاً** – يعني صفوان – **ما علمت عليه إلا خيراً ، وما يدخل على أهلي إلا معي**)) ؛ دون أن يسمي النبي عليه الصلاة والسلام الرجل . فحدث عندئذ شيء من التقاول والتراد في الكلام بين بعض الأوس وبعض الخزرج .

((**فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل** – سيد الأوس – **وقال : يا رسول الله أنا أعذرك منه**)) ؛ يعني استعد لقتله والإجهاز عليه .

((**إن كان من الأوس ضربنا عنقه**)) ؛ يعني إن كان منا ضربنا عنقه .

((**وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك**)) ؛ ما قال إن كان من الخزرج قتلناه ، وإنما عبَّر بهذا التعبير اللطيف قال : " إن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك " .

((**فقام سعد ابن عبادة** – سيد الخزرج – **فقال : كذبتَ لعمر الله لا تقتله ولا تستطيع قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل**)) ؛ فحدثت حينئذٍ فتنة وتقاول في الكلام .

((**فقال أسيد بن الحضير : والله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فتثاور الحيان حتى كادوا يقتتلون**)) حصلت فتنة عظيمة .

((**فلم يزل رسول الله ﷺ يسكنهم حتى سكنوا**)) ؛ يعني أخذ يهدِّئ فيهم عليه الصلاة والسلام ويطمئنهم ويسكنهم حتى سكن القوم وطفأت هذه الفتنة ، وجاء في بعض الروايات في كتب السير أن النبي عليه الصلاة والسلام أخذ بيد سعد بن معاذ رضي الله عنه وذهب به إلى بيت سعد ابن عبادة وجلسوا في البيت وطعِموا عنده وتحادثوا، ثم أيضاً بعدها بأيام أخذ سعد ابن عبادة أخذ بيده إلى بيت سعد ابن معاذ وطعِم عنده وتحدث حتى تذهب عن النفوس ما كان فيها ، ودخْلة البيت هذه جميلة جداً في إذهاب ما في النفوس ، عندما يكون الإنسان مع شخص خصومة فيطرق عليه الباب ويسلِّم عليه ويطعم عنده ويجالسه في بيته هذه لها أثر عظيم مختلف تماماً فيما لو أنه قابله في الطريق واعتذر منه ، فدخلة البيت هذه لها وقع في النفوس وأثر بالغ جدا في تهدئة النفوس وطرد الشحناء التي قد تكون في النفوس .

الآن سعد ابن معاذ حصل بينه وبين سعد ابن عبادة هذا التقاول ، فهذا يفيد أن سعد ابن معاذ ممن اشتركوا في غزوة بني المصطلق وكان حيًّا بعد هذه الغزوة. ونحن مر معنا في غزوة الأحزاب أنه أصيب في أكحله بسهم فسأل الله ﷻ أن يؤخر موتته حتى يُقِرَّ عينه من بني قريظة ، وحكّمه النبي ﷺ فيهم ثم انفجر جرحه فمات بعد غزوة بني قريظة مباشرة ، فماذا يستفاد من هذا ؟ أنه لا يمكن أن تكون غزوة بني المصطلق بعد الأحزاب وبعد بني قريظة ، لا تكون إلا قبلها ، فهذا من أقوى الأدلة ، وهذا الذي كان بين سعد ابن معاذ وسعد ابن عبادة هذا ثابت في الصحيحين ، فثبوته لا شك فيه ، فهذا من أقوى الأدلة وأوضحها أن غزوة بني المصطلق كانت قبل غزوة الأحزاب . ولهذا قال ابن كثير :